



## الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني وحدود إسهامها في تدوين تاريخ الجزائر الحديث

الطالبة الدكتورالية: حوتية عفيفة - جامعة أدرار.

أ.د/ بوسليم صالح - جامعة غرداية.

Email : salahboussalim@yahoo.fr

### ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز القيمة العلمية لكتب الرحلات الجزائرية التي دونها ثلّة من الرّحّالين الجزائريين الذين انطلقوا من الجزائر في طريقهم إلى المشرق أو المغرب الإسلاميّين خلال العهد العثماني، مع الإشارة إلى أهميتها في تدوين تاريخ الجزائر. وقد شغلت الرحلة إلى الحجاز حيّزا كبيرا من أدب الرحلات؛ وذلك لارتباطها بأداء فريضة الحج، كما وجدت بمؤازرة الرحلات الحجازية رحلات علمية التي كان يهدف أصحابها إلى تحصيل طلب العلم واكتشاف مواطن الإنسان وتسجيل مشاهدات الرحالين. وبرز في مجال أدب الرحلات خلال العهد العثماني العديد من الأعلام، نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر: أحمد المقرّي، والورثيّلاني، عبد الرحمان بن عمر التّيلاني، وأبوراس الناصري، وابن همدوش... الخ .

### Abstract

This paper aims at highlighting the scientific value of the books of the Algerian trips, which were followed by a hill of Algerian backpackers who set out from Algeria on their way to the Orient or the Islamic Maghreb during the ottoman period, with reference to its importance in the history of Algeria . The trip to the Hejaz has taken a large part of the liberation of the trips, because of its association with the performance of the pilgrimage, and found in parallel with Hijaz flights, scientific trips whose owners aim to collect the request of knowledge .Also highlighted in the field of travel literature in Algeria during the ottoman period, many of the media including: Ahmed Al-Makri; Abderrahman Al-Tilani; Abu Ras Nasiri; Ibn Hammadoush...etc.

**Key words:** Algerian trip, Pilgrimage and scientific trips, the history of modern Algeria, Ottoman period

## - أولاً: كتب الرحلات الجزائرية: بين الدوافع الدينية والعلمية.

كانت الرحلة<sup>(1)</sup> معهودة في تاريخ أجدادنا الذين يقدرون ما يُجنى منها من الفوائد المتنوعة، ويتحمّلون في سبيل تحقيقها وعثاء السفر ومشاقه ومتطلباته في ظروف لم تعرف بعد وسائل النقل المتطورة، وأسباب الراحة المستخدمة.

وتتلخص الإشكالية التي ستعالجها هذه الورقة البحثية في التساؤل الآتي: القيمة العلمية لكتب الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني؟ ودورها في كتابة تاريخ الجزائر الحديث؟

وقد تعدّدت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، وهي بالجملة تعني الانتقال من مكان لآخر لتحقيق هدف معين، سواء كان مادياً أم معنوياً<sup>(2)</sup> وقد تنوعت الدوافع التي كانت تحدو بهم إلى القيام برحلاتهم، فكان منها الحرص على لقاء المشايخ والاستفادة منهم واستجازتهم والرواية عنهم.

وقد أكّد العلامة ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) ذلك في مقدّمته الشهيرة في الفصل الثالث و الثلاثون "أن الرحلة في طلب العلم و لقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم"، حيث قال: "والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم و أخلاقهم و ما يتحلون به من المذاهب و الفضائل، تارة علماً و تعليماً و إلقاءً، و تارة محاكاة و تلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشدّ استحكاماً و أقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها، فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب المعارف و الفوائد و الكمال بقاء المشايخ و مباشرة الرجال"<sup>(3)</sup>.

ومن الدوافع التي تُحفّز إلى الرحلة، أداء مناسك الحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدسة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لا شك فرصة لاحتكاك

العلماء المسلمين بغيرهم الوافدين من كل العواصم العربية والإسلامية. ويغتنم الفرصة أصحاب الرحلات لتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم في مؤلفاتهم، التي أصبحت تُعرف بالرحلات الحجازية<sup>(4)</sup>.

وقد تجاوب المغاربة مع هذا الركن من الدين وتحمّسوا له، فكانت أمنية الواحد منهم أن يقوم بهذه الرحلة الدينية العلمية، ولا يزال هذا الشعور فيهم قائماً.

وكثيراً ما دَوّن أعلامنا رحلاتهم وضمّنوها مشاهداتهم وسجّلوا بها ما صادفهم في طريقهم وفي المراكز التي أقاموا بها، كما أودعوا أسماء المشايخ الذين لاقوهم وأخذوا عنهم أو الصلحاء من الأولياء الذين زاروا أضرحتهم، بل وحتى أسماء الكتب التي قرأوها ودرسوها، وهم بذلك يضعون حلقات جديدة في سلاسل السند ويحافظون على السنن الحميدة في نقل المعرفة، هذه السنن التي كانت من مميزات حضارتنا.

ولأغلب هؤلاء المدوّنين للرحلات حرص على تسجيل ذكريات حبيبة على نفوسهم، ذكريات السفر إلى بيت الله الحرام ومشاهداتهم في طريقهم، وما حصل لهم خلالها. وهكذا أثري أدب الرحلات وتعددت كتبه ذات الأساليب المختلفة، والمادة الغنية بالإفادات والمعلومات.

#### ثانياً: الرحلات الحجازية.

عرفت الجزائر في العهد العثماني العديد من الرحلات باتجاه المشرق، وكان على رأس الأهداف المرجوة من ذلك أداء فريضة الحج، ولكن ذلك لا يخلو من أهداف أخرى مُزجت مع الهدف الأسمى، مثل طلب العلم والإجازات وغيرها. ونجد نوعين من الرحلات الحجازية، فمنها ما يندرج ضمن إطار الرحلات، ومنها ما يخرج عن ذلك. وستتطرق إلى الرحلات الثرية مع إشارة إلى الرحلات الشعرية.

أ) - رحلة أحمد المقرئ (ت 1041هـ/1631م)

وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمان بن أبي العيش التلمساني، المغربي، المالكي، ولد سنة (986هـ/1572م) بتلمسان<sup>(5)</sup> وأما نسبه المقرئ، فترجع إلى أصل أجداده الذين قدموا من مقرة بالقرب من المسيلة إلى تلمسان، وبسبب القرب بين تلمسان والمغرب الأقصى. وحب الاطلاع عند المقرئ اتجه إلى فاس سنة (1009هـ) وهي أولى رحلاته، ثم قصد مراكش سنة (1010هـ)، وبعدئذ عاد إلى تلمسان سنة (1011هـ) ، لكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب الأقصى. للاستزادة من المعرفة سنة (1013هـ)، حتى ذاع صيته بها، خاصة بعد أن تولى القضاء والإفتاء بجامع القرويين.<sup>(6)</sup>

وعرفت هذه المرحلة من حياته إنتاجا أدبيا هاما حيث ألّف "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" و "الجنابذ فيمن لقيته من الجهابذ"، و "روض الآس العاطر في الأنفاس فيمن لقيته من أعلام مراكش وفاس" (ألفه 1011-1012هـ)، و "شرح مقدمة ابن خلدون"، و "قطف المهتصر في شرح المختصر" وغيرها<sup>(7)</sup>. ومثله كباقي أهل المغرب الإسلامي؛ اشتاقت وتاقت نفسه للحج وزيارة الحرمين الشريفين ولشدة وحشته أرسل رسالة سنة (1021هـ) إلى الشيخ أبي بكر المغربي، يصف له ذلك، ومما قاله:

"إلى الله أشكو بالمدينة حاجة \*\*\* وبالشام أخرى فكيف تلتقيان"

فقرر بعد ذلك تحقيق أمله، فشد الرحال سنة 1027هـ من فاس مارا بتونس ومنها إلى الإسكندرية عن طريق البحر وصولا إلى مكة فاعتمر وحج وعاد إلى مصر. سنة 1029هـ، وبعد مقامه ما يقارب شهرين بها اتجه إلى المسجد الأقصى وزار غزة، ثم عاد إلى مصر. مرة أخرى. وانطلاقا من مصر. كان يقوم بأسفاره إلى المشرق حيث زار

دمشق عدّة مرّات (1037-1040-1041هـ). وقد عقد المقرّي علاقات طيّبة في البلاد التي زارها، ومنها دمشق التي قال فيها عدة قصائد شعرية، ويرجع الفضل في دفع المقرّي إلى تأليفه لكتابه المشهور "نفع الطيب" إلى أحد الشخصيات الدمشقية المشهورة، وهو "أحمد ابن شاهين"، وقد ساءت حالته الصحية في السنوات الأخيرة من حياته، لذا قرّر السفر إلى دمشق والاستقرار بها، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقبضت روحه قبل بلوغه مأربه سنة 1041هـ / 1631م<sup>(8)</sup>

ومن آثار المقرّي مجموعة من المؤلفات، ومنها: "رحلة في المشرق والمغرب" وتوجد نسخة مخطوطة منها في المكتبة الوطنية الجزائرية بترقيم: 3191. ويندرج مؤلفه ضمن "الرحلة الحجازية" وأحداثها غير خاضعة لترتيب دقيق، ذكر فيها المقرّي جوانب من حياته الاجتماعية والعلمية، فهي تعطينا معلومات قيّمة عن حياة المؤلف وتنقلاته.<sup>(9)</sup>

وكانت حياة أحمد المقرّي مليئة بالأحداث والأسفار، وبالتالي بالتجارب، وبجمعها بين دفتي كتاب، فإنه يقدم للأجيال كنزا هاما، إلا أن هجرته لبلده الأصلي الجزائر واستقراره بمصر. ساهما في تردي الحياة الثقافية في الجزائر وهو ما يشبه اليوم بهجرة العقول أو "الأدمغة" إلى الخارج.<sup>(10)</sup>

#### (ب) - رحلة أبي راس الناصري (ت 1239هـ/ 1823م).

لقد شهد مطلع القرن الثالث عشر. الهجري/ التاسع عشر. الميلادي، بروز حركة أدبية مميّزة في حواضر الغرب الجزائري، فيما يخص أدب الرحلة الحجازية، ومن بين هذه الرحلات، رحلة أبو راس الناصر فمن هو؟

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي، عاش ما بين (1165 و1239هـ)<sup>(11)</sup> ولد بنواحي جبل كرسوط -بالغرب الجزائري - وترعرع في أسرة فقيرة، وعاش يتيما حيث توفيت والدته ثم والده ليكفله أخوه الأكبر. وبيدأ بعدئذ رحلة طلب العلم مع طلب الطعام من الدور<sup>(12)</sup>، وكان قد حفظ القرآن الكريم بأحكامه ودرّسه أيضا، كما يقول: "ولقد انتفع بي كثير من الطلبة في الأحكام ودرستها لهم" فاتجه إلى مازونة - وكان سفره في أول صوم له- لتعلم الفقه فحفظ مختصر خليل وغيره.<sup>(13)</sup>

وبسبب نبوغه وقوة ذاكرته، كان يدرس وهو صغير السن بمازونة، ثم اشتغل بعد ذلك القضاء في "غريس" بقرب معسكر، ثم بقي حوالي ستة وثلاثين سنة في التدريس، زار العديد من المدن في الجزائر، مثل: الجزائر وقسنطينة، وخارج الجزائر مثل: تونس ومصر- والحجاز وغيرها، وبدأ أسفاره إلى المشرق الإسلامي سنة 1204هـ، ولعلمه ذاع صيته واشتهر حتى عرف في مصر "بشيخ الإسلام"<sup>(14)</sup>

عاد أبو راس إلى وطنه؛ أين شغل ما يحصل عليه أهل العلم والصلاح، القضاء والإفتاء وخطبة الجمعة في "أم عسكر"، لكنه عزل منها سنة 1211هـ، فاتجه إلى المغرب الأقصى.. وبعد مدة قضاها في المغرب عاود الرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1226هـ / 1813م، فحج وعاد إلى الجزائر أين استقر وألف رحلته الموسومة بـ"فتح الإله ومنتته في التحدّث بفضل ربي ونعمته" بعد سنة (1233هـ)<sup>(15)</sup>، وتوفي بعد ذلك في أم عسكر سنة (1238 أو 1239هـ).<sup>(16)</sup>

إن رحلة أبي راس الناصر المسماة "فتح الإله" تمّ طبعها بعد تحقيقها من قبل المؤرخ محمد بن عبد الكريم الجزائري، وهي مقسّمة إلى خمسة أبواب، أولها كان عنوانه "ابتداء أمري"، وفيه ذكر سيرته الذاتية، وأما الباب الثاني فسمّاه "في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"، والعنوان يدل على محتواه، من ترجمة شيوخه، والباب الثالث خصّه لذكر رحلته فسمّاه "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء والأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، وكان الباب الرابع "في الأسئلة وما يتعلّق بها"، والباب الخامس والذي ختم به المؤلف هو "العسجد والإبريز في عدة ما ألّفت بين بسيط ووسيط ووجيز"، وفيه ذكر لمؤلفات أبي راس الناصر<sup>(17)</sup>.

إن الرحلة تتكون من شيئين أدب وعلم، ونجد أن رحلة أبي راس الناصر قد جمعت بين الأمرين، مع تغليب الثاني على الأول، حيث ذكر العديد من الأمور العلمية، مثلا: فعند دخوله إلى مصر قال: "لقد لقيت بها العلماء الكبار أهل العلم والأدب والأخبار، والإمام الأرضي... شيخنا السيد مرتضى ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل الصحيحين..."<sup>(18)</sup>.

كما ترجم لشيخه وذكر العديد من المسائل الفقهية التي صادفته، وختم ذلك بذكر مؤلفاته، وهذا يدل على مدى اهتمامه بالجانب العلمي<sup>(19)</sup>.

لقد ترك لنا أبو راس الناصر كما معرفيا هاما، ذكر في رحلته حوالي ستة وثلاثين مؤلفا منها، وقيل إن عدد تأليفه بلغت مائة وسبعة وثلاثين كتابا<sup>(20)</sup>، ومنها في التاريخ:

- "زهرة الشمايخ في علم التاريخ"

- "المنى والسّول، من أول الخليقة إلى بعثة الرسول"
- "در السحابة، فيمن دخل المغرب من الصحابة"
- "در الشقاوة في حروب درقاوة"
- "المعالم الدالة على الفرق الضالة"
- "الوسائل إلى معرفة القبائل ."
- "الحلل السندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية"
- "ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس ."
- "مروج الذهب في نبذة من النسب، ومن انتمى إلى الشرف وذهب ."
- "الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعاً من أنواع العلوم ."
- "تاريخ جربة ."
- "عجائب الأسفار، ولطائف الأخبار" (21) .

#### ج) - رحلة الحسين بن محمد الورثيلاني (1193هـ/1780م)

هو الحسين بن محمد بن سعيد الورثيلاني ، نسبة إلى بني ورثيلان بمنطقة القبائل الصغرى بالجزائر<sup>(22)</sup>، ولد سنة 1125هـ في أسرة اشتهرت بمكانتها الدينية والاجتماعية الحسنة، فقد كان جدّه ووالده أصحاب طريقة صوفية، وكان أخواله من أسرة أولاد أمقران صاحبة "المال و السيف"، وترد العائلة نسبها إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي من الأشراف، تعلم العلوم الدينية، فحفظ القرآن ونهل من الفقه كما حصل النحو ودرس التوحيد والتصوف وأخذ من التاريخ وفنون زمانه<sup>(23)</sup>، وممن تتلمذ عليهم: الشيخ البلدي والحفناوي والجوهري والنفزاوي والصعيدي و خليل

المغربي وغيرهم<sup>(24)</sup>. ومع اجتماع النسب الشريف والمكانة الدينية المحترمة والعلم مع مصاهرة الأسر العريقة كل هذا يُؤلد شخصية مميزة تترك بصمتها في التاريخ.

كانت حياة الورثيلاني كحياة الصوفيين حياة زهد وورع، وأصبح شيخ الطريقة الشاذلية، وكان يجب الاطلاع حيث اطلع على رحلات من سبقه مثل: "الرحلة الناصرية" للدرعي المغربي (ت1717م)، ورحلة "ماء الموائد" لأبي سليم العياشي (ت1681م)<sup>(25)</sup>.

أدى الورثيلاني فريضة الحج، وزار الحجاز عدّة مرات لتأدية مناسك الحج والعمرة، أولها كانت رفقة والده سنة 1159هـ وكان ابن الثامنة عشرة، والثانية سنة 1166هـ وكان عمره 41 سنة، في حين حجته الثالثة والأخيرة كانت سنة 1181هـ<sup>(26)</sup>، واتبع الورثيلاني على خلاف رحلة أبي راس الناصر الطريق البري، في حين اتبع الثاني كما ذكرنا الطريق البحري، وهذا مما ميّز رحلة الورثيلاني، فقد زار العديد من المدن في المغرب الإسلامي قبل بلوغ الحجاز والتقى بمشايخها، حيث مر في رحلته بـ "مجانة وزمورة وبسكرة وسيدي عقبة وزلتين وأولاد سيدي ناجي ونفطة والحامة وتوزر وزواوة طرابلس وزلتين ومصراتة وبلاد السرت وبرقة والإسكندرية والقاهرة والمدينة ومكة"<sup>(27)</sup>

وكان الحسين الورثيلاني يُدوّن كل ما يصادفه أو يراه مُهما للذكر، ويلتمس لذلك وقت استراحة القافلة، فيقيّد في كناش أسماء الأماكن والأشخاص وعيون الماء وغيرها، وعند انتهاء موسم الحج وعودته إلى الجزائر جلس للتدريس، وكان يروي لطلابه ما كان لاقاه في سفره من شيوخ وأماكن<sup>(28)</sup>. وألّف رحلته التي سماها "نزهة

الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وقد قام محمد بن أبي شنب بتحقيقها وطبعها سنة 1908م<sup>(29)</sup>، وقد وقع الريب في طريقة كتابة الرحلة، هل هو الذي كتبها أم أنه أملاها، وكان الناسخ غير ضليح باللغة العربية؟ فإذا كان قد أملاها فهو ما يفسر- "التكرار والأخطاء وتداخل المناسبات" أو أن يكون قد كتبها بنفسه لكنه لم يتمكن من مراجعتها، وقد فرغ عموما من كتابة الرحلة سنة 1182هـ<sup>(30)</sup>

جاء في مقدمة رحلته أن أهل بلده كانوا عازفين عن التاريخ مستصغرين له، كما ذكر أنه عازم على تأليف "رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزدهوا بمحاسنها عن كتب الأخبار". واستعان الورثيلاني لكتابتها على المشاهدة المباشرة وعلى النقل، فأما المشاهدة فكانت أسفاره المتكررة تثبت معلوماته، وأما التأليف التي استعان بها فمنها: "عنوان الدراية" للغبريني، و"النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" و"الوغليسية" بشرح عبد الكريم الزواوي، ورحلة الدرعي ورحلة العياشي، حتى أنه ينقل أحيانا بالصفحة الكاملة عن هذه المؤلفات<sup>(31)</sup>.

لقد وصفت الرحلة الورثيلانية مسار قوافل الحجيج والمدن وعيون الماء ونوعيته مثل "معطن تورغة: مأوه قبيح لا يصلح للشرب"، "معطن مطراو: ماء عزيز مستجم فيه ميل إلى مرارة"<sup>(32)</sup>، وترجم للعلماء الذين التقى بهم، ومن الملاحظات المتكررة التي ذكرها في الرحلة في الجانب الاجتماعي انعدام الأمن على طول الطريق وكثرة الحرابة واللصوص، حيث ذكر مثلا تعرض إبل قافلتهم للسرقعة، وقابل بسبب ذلك أمير مكة، وكان الظلم والرشوة منتشرة عند الأمراء ضد الحجيج، حتى إن الورثيلاني

كاد يسقط الحج بسبب انعدام الأمن<sup>(33)</sup> ؛ وباعتبار الورثيلاني من أهل الباطن والظاهر، فقد أورد لقاءاته مع بعض شيوخ الزوايا والصوفيين<sup>(34)</sup>

وفي الجانب الاقتصادي، قارن الورثيلاني بين تونس وطرابلس والجزائر، فوجد أن الجزائر دون السابقتين اقتصاديا، ولم ينس الحالة الاقتصادية في الحجاز ومصر- أيضا، حيث لاحظ قلة الأمن والماء وحالة الزراعة وغيرها<sup>(35)</sup>

وتكمن أهمية رحلة الورثيلاني في ذكره للأحوال الاقتصادية والاجتماعية؛ ليس في الجزائر فحسب، بل يتعداه إلى تونس وطرابلس ومصر- والحجاز في القرن 12هـ/18م، إضافة إلى اهتمامه بالحياة الثقافية، فقد ترجم لمجموعة من شيوخه وأعلام بلده<sup>(36)</sup>.

وتعتبر رحلة الورثيلاني مرآة صادقة للحياة الثقافية بالجزائر في القرن 12هـ/18م، كما صوّرت أفكاره ومعتقداته الدينية، ومكانة المشايخ و"الأولياء"، وشوقهم الكبير وحالتهم النفسية تجاه أداء فريضة الحج، وكذلك المنافسة العلمية بين العلماء، إذ كان يريد بعد أن اطلع على رحلات سابقه أن تكون رحلته مفخرة لبلاده، وهذا ما يبيّن الروح الوطنية عند الورثيلاني.

### - ثالثا: بعض الرحلات الأخرى

سنحاول أن نشير إلى مجموعة من الرحلات التي لم تسمو إلى شهرة الرحلات المذكورة سابقا، أو أن بعضها مفقود مع وجود بعض الإشارات إليها، ومنها ما يندرج ضمن فن أدبي آخر غير النثر، فقد نظم بعضهم رحلته في قصائد شعرية، ومنها ما هو واقعي؛ أي أن الرحلة حصلت جسدا وروحا، ومنها ما هو خيالي؛ أي وقعت روحيا خياليا لا واقعا جسديا أو ماديا. ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: رحلة عبد

الرزاق ابن حمادوش الجزائري 1107هـ/1695م، فقد قام بالعديد من الرحلات شرقا وغربا، ولكن الموجود والمطبوع منها، هو الجزء الثاني، والذي حققه الأستاذ أبو القاسم سعد الله معتمدا على نسخة مخطوط واحدة، ويُقَدَّر بأن الجزء الأول من الرحلة ربما كان يحوي رحلة ابن حمادوش الحجازية، إذ نجد بعض الإشارات عن ذلك في رحلته الموسومة بـ "لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والآل"، وكان قد حج سنة 1125هـ و1161هـ<sup>(37)</sup>.

ويبدو أن جل الرحلات المنظومة كان أصحابها من الغرب الجزائري، وتنوعت الرحلات - بحسب ثقافة وإطلاع المؤلف - بين المنظومة بالشعر الفصيح والملحون، فأما النوع الأول، فنذكر "محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني<sup>(38)</sup>؛ نزيل فاس،" الذي نظم قصيدة "همزية" انتهى من نظمها سنة (1152هـ)، جاء فيها ذكر ما رأى في رحلته التي كان مطلعها: "أزمع السير إن دعت أدواء\*\*\* لشفيح الأنام فهو الدواء"، والقصيدة "متوسطة الجودة"<sup>(39)</sup>، وتبقى ذات أهمية تاريخية، تعبر عن ثقافة ورأي صاحبها ومرآة للأحاسيس المتأججة في صدر العامري والمتلهفة لإجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام

1- رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي خلال القرن 11 هـ / 17م: ومن الرحلات الحجية النظامية، نجد رحلة "عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المجاجي"، والتي نظمها هو الآخر بالشعر الفصيح سنة 1063هـ<sup>(40)</sup>، حيث انطلق من مجاجة باتجاه مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وقد جاء في مطلعها:  
"نشق الفيافي فدفا بعد فدفا\*\*\* جبالا وأوعارا وأرضا وطية".

وضمت أخبار البلاد التي زارها والأعلام الذين لقيهم المجاجي في أسفاره، إضافة إلى قبور "الأولياء" التي زارها، حيث التقى في مصر بالشيخ "علي الأجهوري"، وزار قبر ابن الحاجب في مصر، كما وصف من كان معه في ركب الحجيج مثل "أبو الحسن بن ناجي صاحب الخنقة" (ربها خنقة سيدي ناجي بيسكرة)، إضافة إلى أخبار عن تونس ومصر وطرابلس<sup>(41)</sup>

## 2- رحلة محمد بن المسائب التلمساني:

ومن الرحلات الحجازية المنظومة بالشعر الملحون، نجد قصيدة "محمد بن المسائب التلمساني" في القرن الثاني عشر. الهجري/18م، وكان قد بدأ رحلته انطلاقاً من تلمسان عبر الطريق البري المعهود والتقليدي لأهل الغرب الجزائري عبر مليانة والبليدة والجزائر ومجانة وقصر الطير وقسنطينة والكاف وتونس، ثم طرابلس فمصر؛ وصولاً إلى الحجاز، وابتدأ محمد بن المسائب قصيدته، بقوله: "يا الورشان أقصد طيبة \*وسلم على الساكن فيها"، ولم تخلو ساحة الشعر الملحون لابن المسائب وحده، بل نجد من وضع بصماته في هذا الجانب، مثل "ابن التريكي والزناقي"، وإن كان شعرهما أقل جودة من شعر محمد بن المسائب.<sup>(42)</sup>

## رابعاً: الرحلات العلمية:

يقصد بالرحلات العلمية، تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم والأخذ عن العلماء، ووصف البلدان والمجتمع عموماً، والحديث عن الحياة الفكرية والنشاط الثقافي<sup>(43)</sup>. ومن بين هذه الرحلات التي سنعرضها في هذا المقام، رحلة عبد الرزاق بن حمادوش وابن الدين الأغواطي.

## 1- رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري.

هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد بمدينة الجزائر سنة (1107هـ/1695م)، وتوفي بعد حوالي 90 سنة، تلقى علومه الأولى بالجزائر أين تقلد بعض الوظائف الدينية، قام بعدة رحلات حيث أدى فريضة الحج وزار المغرب الأقصى. كما زار المشرق الإسلامي في مناسبات متعددة، اختلفت ثقافة ابن حمادوش عن معاصريه فإضافة إلى العلوم الشرعية السائدة في زمنه، برع في العلوم العقلية من رياضيات وطب ونحوهما، وله العديد من المؤلفات منها: "كشف الرموز"، وهو يدرس الطب الشعبي العربي، وقد ترجم منه "لوسيان لوكيرك" جزء إلى الفرنسية<sup>(44)</sup>

ومن المؤلفات المشهورة لابن حمادوش الرحلة الموسومة بـ: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، والتي حققها ونشرها الأستاذ أبو القاسم سعد الله، وكما سبق الذكر، فإن التحقيق تمّ بالاعتماد على نسخة واحدة، وهي تمثل الجزء الثاني من الرحلة، والتي احتوت على رحلته إلى المغرب الأقصى، حيث انطلق فيها سنة (1156هـ/1743م) وكان عمره آنذاك 48 سنة، بهدف الحصول على الإجازة، فزار تطوان ومكناس وفاس، وكان يتاجر أيضا بسلعة جلبها معه من الجزائر.

وأهم ما يستفاد من هذه الرحلة العديد من الأمور، خاصة في المجال الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، خاصة لما قدّم من وصف لطريقة التدريس ونوعية الدروس والكتب التي تدرّس وأوقات الدروس وطريقة أخذ الإجازات، كما ترجم لشيوخه وذكر شيوخ شيوخه الذين أجازوه، وكان يصف ما يراه في سفره من حروب بين صاحب فاس وأحد المناوئين له، وطرق أحياء الأعياد والألبسة التقليدية المستعملة فيها وبعض الآفات الاجتماعية الموجودة في المغرب الأقصى. وفي الجزائر، وعند عودته قدّم وصفا للأحوال الاجتماعية السائدة، وطرق الاحتفال بالمولد النبوي وعيد الفطر بالجزائر، وضمّت رحلته أيضا، بعض الأخبار المنقولة عن "تاريخ الدول

للمطي"، و كذا بعض الألباز وتراجم لبعض العلماء المنتمين للعلوم العقلية، مثل البتاني، و الرازي، والفارابي وغيرهم.<sup>(45)</sup>

## 2- رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي.

إن الرحلات العلمية أقل شهرة من الرحلات الحجازية وأقل عددا أيضا، ورغم ذلك تبقى ذات أهمية كبيرة ومن بين هذه الرحلات، "رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء"، ويرجع تاريخ تأليفها إلى سنة 1242هـ/1828م؛ أي قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر بحوالي سنتين، ولذلك فهي تقدم لنا صورة هامة حول الجنوب الجزائري خلال تلك الفترة، بوجهة نظر محلية.

وصاحب الرحلة كما ذكرنا، هو الحاج ابن الدين الخطيب الأغواطي، المنسوب إلى مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري، "وربما سُمي بالحاج لأدائه لفريضة الحج، فقد ذكر في رحلته مدينة الدرعية وهي موجودة بالحجاز، وقد قال في نهاية مؤلفه أنه نقل ما رأى بنفسه، ومن هنا يكون احتمال حجه كبيرا. ومما قيل فيه أنه كان "كثيرا المطالعة قليل التعلم"، ويظهر ذلك من خلال المعلومات الواردة في رحلته.<sup>(46)</sup>

وكان دافع ابن الدين إلى ذلك هو طلب "ويليام ب. هودسون"<sup>(47)</sup> له بتدوين رحلته، ثم قام هودسون بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ونشرها في لندن سنة 1830م<sup>(48)</sup>، ثم ترجمت عن الإنجليزية إلى الفرنسية من قبل الفرنسي- "دافيزاك"، ونشرت في "مجلة الجمعية الجغرافية الباريسية" سنة 1836م<sup>(49)</sup> ونقلت بعدئذ إلى اللغة

العربية من قبل الأستاذ أبو القاسم سعد الله، وطبعت ضمن كتابه أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر<sup>(50)</sup> .

كما احتوت رحلة ابن الدين على أوصاف مجموعة من الأقاليم والمدن سواء في الجزائر وتونس والسودان الغربي والحجاز. أما عن أهم الأماكن التي وصفها فهي كما يأتي: الأغواط وتاقدمت وعين ماضي وجبل عمور ومثلي و وادي ميزاب والقلعية وورقلة وتقرت وتوات وتيميمون وعين صالح وشنقيط وتمبكتو وغدامس وجزيرة جربة والسودان والدرعية.<sup>(51)</sup>

وفي نهاية مؤلفه ذكر أن "ما سبق هو وصف لما رأيته"، وقد شكك أبو القاسم سعد الله في ذلك، خصوصا مع عدم وجود تدقيق في الأوصاف والمسافات، وهو ما يجعله ربما نقل ما سمع أو قرأ دون رؤيته<sup>(52)</sup> .

وتعتبر هذه الرحلة مرآة للواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في الحواضر الصحراوية الجزائرية التي لم يصل إليها امتداد السلطة العثمانية الحاكمة آنذاك، حيث تصف لنا إضافة إلى المدن عادات وتقاليد أهلها، مثل عادة صيد النعام أو كيفية صناعة البارود عند أهل الصحراء، ونظرا لأهميتها فقد ترجمها "هودسون" و"دافيزاك" إلى لغاتهم، وذلك لمعرفة طرق أو مسالك الصحراء بالجنوب الجزائري وذهنيات ساكنته، وكان ذلك لأهداف استكشافية لا تخلوا من النزعة الاستعمارية.

والملفت للانتباه أن حب الاطلاع والاكتشاف كان يستهوي الفرد الجزائري، وبعد اكتساب المعرفة وتحقيق المأمول، يسعى إلى مشاركة غيره من أهل وطنه فيما رَسَخ في ذاكرته من أخبار البلدان وشعوبها ولغاتها وعاداتها، فعرفت بعض الرحلات النور بعد نشرها ودراستها، في حين لا تزال أخرى مكدسة في الخزانات تأكلها

الأرضة وتفنيها الأيام، وأما الرحلات الشفوية فنسيت مع مرور الأزمان وتعاقب الأجيال.

ومجمل القول، فقد خلصت هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من الاستنتاجات، يمكن أن نوجزها في النقاط الآتية:

- إن تاريخ الرحلة قديم قدم الإنسانية ذاتها، ولعلّ البحث عن القوت كان سبباً رئيساً في حركة هجرة الأفراد والجماعات في العصور القديمة من تاريخ الإنسانية؛ بهدف البحث عن الدفء والملاذ الآمن وتوفير الاحتياجات، ولعلّ الدافعين الاقتصادي والعسكري، قد امتزجا بحوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديده.

- أصبحت كتب الرحالين الجزائريين كغيرهم من المغاربة، مصدراً هاماً للباحثين والمؤرخين؛ ثمّدهم بما يُفيدهم في المجالات الجغرافية والاجتماعية، وتعرّفهم ببعض العادات، وتصف لهم الحياة العلمية والعلاقات بين العلماء، وتعرّفهم ببعض المظاهر التي يغفلها المؤرخون في كثير من الأحيان. فهي ذات قيمة علمية وتاريخية كبيرة تساعدنا على رسم صورة للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.

- حظيت الجزائر بحكم الموقع الجغرافي، الذي جعل منها جسراً للتواصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، باهتمام أصحاب الرحلات المغربية أيضاً، حيث دوّنوا عنها ما عرّفنا بمسالكها ومراكزها ومنازل الحجيج فيها، ونشاطهم التجاري فيها أيضاً، وما رسم لنا من ملامح عن إقامتهم بها في طريق الذهاب والإياب، واجتماع ركبهم المشرق بركبهم المغرب فيه، فالرحلات التي وصف أصحابها مدناً وقرى جزائرية وعرضوا مظاهر من حياة سكانها كثيرة.

- احتوت نصوص هذه الرحلات على معلومات متفاوتة عن موضوع بحثنا، بحكم حجمها المتباين، ومكانة أصحابها العلمية المتفاوتة، لكنّها جميعاً تُجسد التعلّق بالدين الإسلامي، الذي ترجمته الرغبة في أداء مناسك الحج وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والتردد على أولياء الله الصالحين الذين قضوا نحبتهم،

أو الأحياء منهم، بالزيارة والاتصال المباشر، أو بالزيارة عن بُعد حسب الحال والمقام.

- إن كتب الرحلات الجزائرية إبان العهد العثماني؛ ذات مدلول تاريخي كبير، نظرا لما تكتنفه من جزئيات هامة من ذكر لمسار الرحلة وبلدان والموقع الجغرافي من تضاريس ووصف للجوانب السياسية والحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمختلف محطات المغاربية والمشرقية.

- تأكد من خلال البحث، بأن الرحلات الحجازية كانت أكثر عددا من الرحلات العلمية، وربما يرجع ذلك إلى ارتباط الرحلة الحجازية بالجانب الديني؛ ولاعتبار الحج فريضة متعلقة بالجماعة، في حين الرحلة العلمية مرتبطة بالأفراد ورغباتهم الخاصة.

- إن تدوين الرحلات التي قامت بها الشخصيات آنفة الذكر، تدل على اهتمام الجزائريين بعملية تقييد الرحلات وتدوينها من مشاهدات أو معلومات وأخبار كان قد تلقاها الرحالة، أو تعرضت له في رحلته، مما يؤكد وجود نسق اجتماعي وثقافي بين المثقفين والعامّة.

## هوامش البحث:

1. الرحلات هي جمع كلمة " رحلة "، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن الرحلة تعني: " الترحيل والرحال، يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورحل رحول وقوم رحل: أي يرحلون كثيراً، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له ". وورد لفظ رحلة عند ابن منظور بمعنى الانتقال من مكان لآخر " والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة، والرحلة اسم للارتحال للمسير " والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، كما تعني السفرة الواحدة " الرحلة السفرة الواحدة. " ينظر: أبو الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد 03، دار المعارف القاهرة (د.ت)، ج 18، ص 1609.
2. عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام: أنواعها وأدائها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، القاهرة، 1992م، ص 05.
3. عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من كتاب العبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، (د.ت)، ص 542-541.
4. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م، ج 1، ص 177.
5. ولم يقتصر التأليف في الرحلة الحجازية، على المغاربة والعرب المشاركة، بل ألف علماء شعوب إسلامية كثيرة في هذا النوع من الكتابة، نذكر منهم بعض الأتراك مثل إيليا جليبي (حجة عام 1631م)، ويوسف نايي (حجة سنة 1678م)، وعبد الرحمن حبري، ومحمد أديب الذي حج سنة 1779م)، ينظر أيضا: بنحادة عبد الرحيم: العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1/ 1429هـ-2008م، ص ص 245-250.
6. أحمد بن محمد المقري: فح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1988م، ص 05.
7. سميرة أنساعد: صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني، على الرابط الإلكتروني: [www.ahllalhdeth.com](http://www.ahllalhdeth.com)، 6-2-2013.
8. أحمد بن محمد المقري: المصدر السابق، ص ص 11، 12، 13.
9. سميرة أنساعد: المرجع السابق.
10. المرجع نفسه.
11. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ج 1، ص 178.

11. أورد أبو القاسم سعد الله أن ميلاده سنة 1165هـ ووفاته بين (1238 و1239هـ) وأما حنيفي هلايلي، فذكر أن ميلاده كان في سنة 1150هـ، وراقت في تاريخ الجزائر، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص 218.
12. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 377
13. أبو راس الناصر: فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص ص 19-21.
14. ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بو عبدلي: الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 195
15. سميرة أنساعد: المرجع السابق.
16. المرجع نفسه.
17. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 2، المرجع السابق، ص 399.
18. أبو راس الناصر: المصدر السابق، ص-ص 1-185.
19. سميرة أنساعد: المرجع السابق.
20. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 2، ص 341.
21. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 380.
22. عبد الحق زربوح: أبو راس الناصري الجزائري ومؤلفاته، في مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد 98-السنة الخامسة والعشرون -حزيران 2005 -جمادى الأولى 1426هـ، ص 235.
23. ناصر الدين سعيدوني: وراقت جزائرية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص 572.
24. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ص 186
25. ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 572.
26. حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 216
27. ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 572.
28. حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 216
29. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 397.
30. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ج2، ص 101.
31. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 397.
32. المرجع نفسه، ص 396.

33. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص 115.
34. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ص 197.
35. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 398.
36. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 398.
37. حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص ص 217، 218.
38. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 391.
39. عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط 2، دار الكتاب، المغرب 1960، ص 433.
40. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 388.
41. توجد نسخة منها في المكتبة الوطنية الجزائرية برقم 1564 و 1565، وتقع في حوالي 11 ورقة.
- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 388، 389.
42. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 388، 389. سعاد آل سيد الشيخ:  
رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي نموذج للرحلة الحجية التنظيمية خلال القرن  
11 هـ / 17 م، في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد السابع، العدد الأول، جامعة  
غرداية، الجزائر 2014، ص ص 201-215.
43. أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 389.
44. مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر  
والتوزيع، الجزائر 1981، ص 10.
45. عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لسان المقال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، سحب الطباعة  
الشعبية للجيش الجزائري، 2007م، ص ص 3، 10.
46. عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: المصدر نفسه، ص ص 3، 151.
47. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 386.
48. هودسون: فنصل أمريكا في الجزائر بين (1825-1829م)، أبو القاسم سعد الله: أبحاث  
وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، المرجع السابق، ص 245.
49. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، ص 243.
50. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 386.
51. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، ص ص 243، 268.
52. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 386.